صور من المجتمع في القرنين السابع والثامن للهجرة في أشهر مصنفات الصفدي

د. سها صاحب القريشي & د. محمد حسين علي حسين

كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة كربلاء

الخلاصة:-

في أعقاب الفتور الذي عرفت به القرون اللاحقة للغزو المغولي للأمة الإسلامية وما خسرته من خزائن علمها بسبب حجم الانهيار والانغماس في التخلف، فإن ظهور طبقة من الكتّاب كان منهم الصفدي (ت٧٦٤ هـ) يعدّ مظهراً من مظاهر النشاط والحيوية للأمة. فالصفدي ذو التصانيف الموسوعية بعنواناتها المختلفة، يعدُّ ملمحاً من ملامح نهوض العصر آنذاك، ومؤلفاته تعدّ وثيقة تصلح لتؤدي دور الشاهد على مرحلة من مراحل التاريخ العربي الإسلامي، لذا فإن الدور الذي تؤديه مصنفات من هذا النوع قادرة على استجلاء الماضي بأبعاد مختلفة. من هنا فقد جاء البحث ليكشف عن جزءٍ منها، فانطلق بمقدمة ثم تمهيد اعتنى بترجمة المؤلف أعقبته مباحث ذات عنوانات تصور المجتمع من الناحية السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية، وأخيرا خاتمة بينت نتائج البحث.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين...

وبعد...

فقد شهد العصر المملوكي غزارة في التأليف والتصنيف، فوجدت بذلك مئات الموسوعات الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية بمجلدات عدّة ضخمة اخذت طريقها الى المكتبة العربية، واستطاعت ان تحفظ التراث الإسلامي العربي بعد ان طمسَ التتار معالم الحضارة العربية في بغداد، ولكنها وجدت امامها الآفاق واسعة في دمشق والقاهرة وغيرها من الحواضر، ولعلّ مصنفات الصفدي تمثل ركنا مهما من بينها.

لقد كان الصفدي وجها بارزا من وجوه عصره، كثير التأليف، مكثرا من النظم والنثر، ومن المحاورات والمراسلات، له علاقات وثيقة بعلماء عصره وأدبائه وشعرائه، فلا عجب ان تتجلى صورة المجتمع في عصره واضحة في مصنفاته، بسلبياته وايجابياته، بعلمائه وخلعائه، بقسوته وترفه، وبأساليب ادبه الميسرة والمعقدة.

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على اشهر كتب الصفدي، التي – ربما – وجدنا فيها ما يرسم نماذج واضحة لصورة المجتمع من نواحيه المتباينة، وهي: اعيان العصر واعوان النصر، الوافي بالوفيات، ألحان السواجع بين البادئ والمراجع، نصرة الثائر على المثل السائر، الهول المعجب على القول بالموجب، امراء دمشق، اختراع الخراع في مخالفة النقل والطباع، لوعة الشاكي ودمعة الباكي.

وجاء البحث على مباحث أربعة:

الأول: صورة المجمع من الناحية السياسية.

الثاني: صورة المجتمع من الناحية الاجتماعية.

الثالث: صورة المجتمع من الناحية الدينية.

الرابع: صورة المجتمع من الناحية الثقافية.

تتقدمها هذه المقدمة، وتمهيد فيه ترجمة للمؤلف (مولده ونشأته ووظائفه ومؤلفاته) وتعقبها خاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع.

تمهيد:

ترجمة المؤلف:

هو صلاح الدين بن ايبك بن عبد الله الصفدي الشافعي، يكنى بأبي الصفاء، مستعرب تركي الأصل، وصفد مسقط رأسه الذي ولد فيه سنة (٦٩٦هـ) وقيل (٦٩٧هـ)، ونشأ في أسرة ثرية نشأة مرفهة، برع في الرسم وحفظ القرآن وأحب الأدب وولع به، وكتب الخط الجيد ونظم الشعر الحسن، وأجاد في النثر والترسل والتواقيع والتأليف وغيرها، وكان من الفرسان ومن كبار أدباء عصره ونقادهم[١].

تولى الصفدي كثيرا من الوظائف الإدارية والمالية في عصره، وأول ما ولي كتابة الدَرج بصفد، ثم بالقاهرة، وباشر كتابة السر بحلب والرحبة وقتا، والتوقيع بدمشق، ثم وكالة بيت المال فيها إلى أن توفي[٢].

ذُكر للمؤلف ما يقارب الأربعين مصنفا بين مطبوع ومخطوط، تم تحقيق أكثر من نصفها، ويدور معظمها حول محاور خمسة وهي: التراجم والشروح والاختيارات الشعرية ومصنفات في اللغة والبلاغة، وشعره وانشاؤه، ويظهر هذا الأخير في القصص والمقامات والرسائل الديوانية.

أما المصنفات التي هي مدار البحث، والتي ذُكرت في المقدمة، فنجد أنها من أشهر مؤلفات الصفدي، يضاف لها تلك التي لم نجد فيها ما يسهم في رفد صور المجتمع آنذاك، فهي كتب عادة ما كانت في الاختيارات الشعرية الموضوعية، حيث قام الصفدي فيها بجمع نتف شعرية لشعراء متباينين تصب في موضوع واحد ككتاب (كشف الحال في وصف الخال) الذي يبسط الكلام عن الخال ثم الشامة والفرق بينهما، مع ايراد الشواهد الشعرية واقوال أهل اللغة، وكتاب (الشعور بالعور) و(نكت الهميان في

نكت العميان) و(رشف الزلال في وصف الهلال) ويفصِّل الحديث فيه عن الهلال من النواحي اللغوية والتفسيرية والفقهية والفلكية والأدبية. و(تشنيف السمع في انسكاب الدمع) و(كتاب غوامض الصحاح) وهو معجم تراثي في معرفة أصول الألفاظ و(جنان الجناس) في علم البديع و(صرف العين عن صرف العين في وصف العين).

ولعل هذه الكتب تعطي فكرة واضحة عن موسوعية الصفدي كما تعطي فكرة عن التطور الثقافي الحاصل آنذاك، وعن مطابقة موضوعاته لعنواناته المسجوعة.

وبعد: فلم يكن الصفدي بعيدا بشخصه عن تيارات الحياة العامة بنواحيها السياسية والإدارية والاجتماعية والأدبية والنقدية وهو يتولى مناصب حساسة في كبرى عواصم الدولة في عصره، فقد كان الميدان الذي سار فيه بين مصر والشام في دولة المماليك البحرية، مجسداً عبر عدد من الظواهر والأحداث التي صورها من خلال تراجمه أو التي ساقها في سلك أدبه ومقاييسه النقدية.

المبحث الأول: صورة المجتمع من الناحية السياسية

بوصف الصفدي أحد امراء المماليك وكبار موظفي دولتهم، فقد أتيح له – بطبيعة الحال – الاطلاع على شؤون الملك وأسراره والاسهام في تسجيل وقائعه لكونه شاهد عيان ومورخاً وناقداً بصيراً. لقد كانت الحقبة التاريخية التي عاصرها الصفدي تمثل عصري الازدهار والانحدار في دولة المماليك البحرية[٣]، ولم يكن المماليك كلهم من عنصر واحد، وكان كل سلطان يشد ازره بأهل عنصره، لذلك نشأت فئات متنافسة في الجيش لا يجمع بينها سوى ظلم الناس، يفتك بعضهم ببعض معتمدين للوصول إلى السلطة قانون الدس والتآمر والقتل، ويعد هذا العهد استمراراً للعهد الأيوبي من حيث وحدة البلاد ومن حيث الكفاح، إلا أنه يمتاز بوقوع الغزو المغلولي فيه للعراق ثم الشام، واضطرار المماليك إلى مكافحة عدوين كانا يتحالفان في حرب واحدة أحيانا٤، ويمتاز أيضا بانتهاء الحروب الصليبية فيه وخروج آخر جندي لهم من (عكا) وذلك بفضل الملك الاشرف. وينتهي هذا الدور سنة (٧٨٣هـ).

قام الملك الأشرف بعزل السلطان الملك المنصور٥ من نيابة دمشق بالشجاعي، فهرب ثم أمسكه وأفرج عنه، فحقد عليه وقتله، ولم يسمع لنصح أبيه فقد (قيل أن السلطان الملك المنصور قال لولده الأشرف، لا... وهذا لاجين لا تمسكه وإن مسكته لا تبقه فإنه يحقد عليك ويعمل على قتلك فخالف والده في الجهتين)[٦]. وقد وصف الصفدي الشجاعي نائب دمشق الجديد قائلاً[٧]:

ثم تولى سنجر الشجاعي وكان معدوداً من الأفاعي

لكنه فيها تلاشى شره حتى صفى ظاهره وسره

وكان في مصر يلي الوزارة غلطت، لا بل يعمل الجزارة

لأنه أجرى دم الكتاب ضربا وتعليقا بلا حساب

وبعد حَزّ رأسه طيفَ به وقُطعَت لوالكٌ في ضربه

ثم بعد قتل الاشرف بويع أخوه الأصغر محمد ولُقّب (الملك الناصر)[٨]، ولم يقو هذا الأخير على النهوض بأعباء الدولة لصغر سنه فعزله الملك العادل[٩]. وقد ذكره الصفدي قائلاً[١٠]:

ثم غدت قلعتها لكتبغا الملك العادل قسور الوغى

واستطاع حسام الدين لاجين الاستيلاء على العرش ولكنه قتل على يد الملك القاهر[١١]. الذي قتل هو الآخر سريعاً.

وقال الصفدي يصف سياسة (لاجين)[١٢]:

ثم غدا لاجين فيها نايبا وكان سهما في النحور صايبا

فساسها بكرم ودربة وفطنة قضت له المحبة

عاد الحكم ثانية للناصر الذي رغب في الحج وخلع نفسه من هناك فاختار المماليك الملك المظفر[١٣]. بدلاً منه فقال الصفدي في ذلك[١٤]:

ثمَّ أراد الله نصر الأمَّة وكَشْفَ ما حلَّ بها من غُمّة

فجاءها بالملك المظفّر وبأسه على العدى موفّر

فكسر المغل وللدينِ جبر بعينِ جالوتَ فيا طيبَ الخبر

وساءت حال البلاد في حكمه، فبويع الناصر ثالثة، وقد أفاضت كُتَب التاريخ في الحديث عنه، وبوفاته بدأ عصر الانحدار في حكم قلاوون[١٥].

وفي الغالب فقد اشتهر امراء تلك الحقبة وملوكها وسلاطينها بالقسوة والتنافس والبطش فيما بينهم، ولا يحبذ الملك الآتي ان تقام مراسم شعبية في تشييع الملك التالي بل يحاسب عليها بشدة، فهم قبل تسنمهم المناصب اناس مسالمون فما ان يتسنموا منصبا حتى ينقلبوا.

قال الصفدي يصف احد الامراء المماليك ممن تقلّبوا في المناصب الحكومية (وكان اذا كان بطالاً مثل الزلال الحلو البارد، فاذا ولي ولو حراسة الدرب مثلا انسلخ من ذلك اللطف ولبس لمن يعرفه ولمن لا يعرفه جلد نمر)[١٦] ، وهي صورة تظهر سرعة تغير الناس وقسوتهم في ذلك الحين بمجرد استلامهم منصبا حتى على اقرب معارفهم.

ومن تلك الصور وصف الصفدي (لأرغون شاه) بصفات مرعبة في قوله: (انه جبار سفاك،طالب لثأره دراك، يده والسيف ممتشقة، وغيضه يوديه الى العطب وخلقه لا يشرب الماء الا من قليب دم، ولا

ينسم الهواء إلا بشم سم، ...، وكان في دمشق زمن الطاعون فما طعن على عادة الملوك، وانما طعن بالسيف الذي يذر الدم وهو مسفوك)[١٧]. وقال[١٨]:

تعجبت من ارغون شاه وطيشه الذي كان فيه لا يفيق ولا يعي

وما زال في سكر النيابة طافحا الى حين غاضت نفسه في المنيبع

لذا فليس دقيقا ما ذهب اليه محمد علي السلطاني متحدثا عن الصفدي: (لم يستهدف لغضب المترجم له ولا اثار حفائظ الملوك والامراء...، لعدم اعتنائه كثيرا بتاريخ السياسة او تدوين وقائع الملوك)[١٩]. فقد كان مرآة لما كان يجري في عصره.

المبحث الثاني: صورة المجتمع من الناحية الاجتماعية

يمكن القول أن التناقض في كل الأمور هوالوصف الأقرب لهذا العصر فهو عصر لا يعرف الاعتدال في أي شأن من شؤون الحياة فقد تجاوز الحد في الفوارق بين الطبقات وفي البناء والعمارة، وفي الزهد والمجون، وفي تطبيق الشريعة والقوانين، وكذلك من نوازل الأيام وكوارث الطبيعة والأوبئة.

والحديث عن طبقات المجتمع من خلال مجالات كالملكية الزراعية والثروة ومستوى المعيشة، يبرز الفروق بين الطبقات. ففي الملكية الزراعية، كانت الأرض ملكا للسلطان وحده يأخذ منها ما يستحسنه ويوزع الباقي على الامراء والجنود كل بحسب رتبته، فللسلطان الربع، ولنائبه الثمن، والباقي لأعوان السلطان ومساعديه[٢٠]. وفي مجال الثروة يمكن ملاحظة ثلاث طبقات.

١- طبقة المماليك:

تحدث الصفدي عن ثرواتهم بما يشبه قصص الف ليلة وليلة من البذخ والاسراف والابهة واحتكار الأموال من خلال تصويره لبعض احتفالات زواج أبناء السلاطين والامراء[٢١].فقد كان المماليك يستأثرون بالقسم الأكبر من التجارة العالمية بين الشرق والغرب[٢٢]. وكان يشارك المماليك هذه الثروات من يتابعهم ممن هم دونهم من النواب والقادة والقضاة، قال الصفدي يصف الرئيس ابن القلانسي[٢٣]: (وله الأملاك التي تكاثر الافلاك وتفاخر الدر المنظّم في الاسلاك من البساتين المونقة، ... وتجتلي محاسن ما رأتها صواحب المكر من يوسفها...)[٢٤].

وفي وصفه ابن فضل المصري[٢٥] قال: (قضى عمره في نعمى عجيبة... يتأنق في المأكل والملابس ويتخرق بالتجمل في المحافل والمجالس... قد اشتهر بالتوسع في الأطعمة والمشارب والتنقل في التنزه والمسارب، قلّ من رأى في دمشق من يدانيه في سماطه)[٢٦]. واحتفاظ الامراء بكل هذه الكنوز شكّل خطرا كبيرا على موازين الدولة الاقتصادية، فتورطت في عجزٍ ماليٍّ اضطرت معه إلى غشّ العملة،

فخلطت الدينار بالفضة[٢٧]. ولم تكن على أي حال مصادر هذه الثروة مشروعة، فقد لجأ عدد من الامراء إلى السرقة والاغتصاب واستغلال المنصب[٢٨].

٢- الطبقة الثانية

وتضم موظفي الدولة والتجار وأصحاب المهن والعلماء، وكانت أموالهم التي يحصلون عليها توفر لهم – في الغالب – حياة رغدة، ومع ذلك فقد لجأ بعض الموظفين ممن أغرتهم الدنيا ودفعهم الطمع في الكسب إلى الانحراف عن جادة الطريق، فمنهم من كان يزوِّر في الأوراق الرسمية[٢٩]، والصفدي ينقل لنا عن ابن وحيد الزرعي[٣٠]، انه كان يبيع المصحف نسخا بلا تجليد وكان يزور في ذلك، اذ يكتب غيره المصحف ويقول له هاتها إليَّ فيزن له أربع مائة درهم، وياخذه الشيخ شرف الدين فيكتب في آخره كتبه محمد بن الوحيد ويبيعه هو بألف درهم[٣١]، ولعل هذا المثال يظهر ما وصل إليه المجتمع آنذاك من ا لانحراف والاحتيال بالتكسب غير المشروع حتى في التعامل مع المقدسات كالمصحف الشريف.

٣- الطبقة الثالثة:

وتضم عامةالناس من الفلاحين والعاطلين عن العمل والعاجزين عن الكسب، وتغلب عليهم حياة البؤس والشقاء وكان نصيبهم الإهمال والاحتقار، ويكون الخطب عليهم اشد والنازلة انكى اذا اختلف الامراء فيما بينهم، وشهر احدهم السلاح في وجه منافسه، لان الجنود كانوا يعيثون فسادا في القرى، ويأخذون الاقوات، ويفجرون بالنساء، وقد يضطر الفلاحون إلى ترك بيوتهم، ويهيمون على وجوههم في الطرقات[٣٢]. (وعندما هاجم التتار بقيادة غازان بلاد الشام التقى بالملك الناصر محمد بن قلاوون... قرب حمص في وادي (مجموع المروج) فانهزم امام غازان... غير أن قلعة دمشق امتنعت عليه فاكتفى بجباية الأموال من الأهالي واخذ كل ما وجد من الغلال والخيل والبغال واحرق جامع التوبة في العقيبة وهدم كل ما حول دمشق من معالم العمران وقتل من حي الصالحية أربعة آلاف وأسر مثلهم)[٣٣].

وفي هذه الحادثة قال الصفدي[٣٤]:

وجاءها غازان بالمغول واكل الأموال مثل الغول

وخطبوا له على المنابر ولم يجد في نصحه مثابر

ولم يفز بالقلعة المعمورة لأنها من صورةِ منصورة

وابصر الناس به شدايدا كادوا يكونون له حصايدا

ثم جبى أموالها وسارا وترك الناس بها سكارى

وقال في مثل تلك الحوادث (تسيب تركمان وغيرهم من المفسدين على بلاد حوران وبلاد البقاع وبعلبك والمرج والغوطة يعبثون ويفسدون وينهبون الأموال والغلال والدواب ويستحلون الفروج ويرتكبون المحارم مدة أربعة وعشرين يوما)[٣٥].

ومن المعتاد ان تتولد الجريمة في أجواء الظلم والجوروالعوز ونقص الأموال حتى وصل الامر الى سرقة الخبز في أيام (ارغون شاه)، واذا قبضت الشرطة على المشتبه فيهم فإنهم يعذبونهم عذابا شديدا ويضربونهم بالمقارع[٣٦] ضربا مبرحا، وقد يموت منهم افراد من التعذيب[٣٧]، وقد افاض الصفدي في الحديث عن الغلاء أيام ارغون هذا قائلا: (واختطف الحرافيش يوما في الغلاء الخبز من الجوع فامسك جماعةمن الحرافيش وقطع أيدي ثمانية عشر وأرجلهم وسمر على الجمال سبعة عشر وهو واقف بسوق الخيل وذلك في تاسع عشر ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وسبع ماءة)[٣٨]. وفي ذلك قال[٣٩]:

كان الغلا يغلو فاما اذا اصبح ناراً قلت ذا يغلي
واصبح الحرفوش ذاكسرة عن طلب الكسرة في شغل
من يطلب الخبز ومن يشتهي وهو يقطع اليد والرجل

وكانت كثرة الحروب والقلق من وقوع غزو وشيك يشتت الناس ويرعبهم مما كان له أثر كبير في عدم استقرارهم، وتأجيج لوعة شوق الآباء لأبنائهم بعد أن أجبروا على فراقهم، لاسيما حينما تكثر الأراجيف بمايفعله عساكر الغزاة من الأذى في دمشق[٤٠]. وغيرها من المدن. قال الصفدي يتشوق ويذكر أولاده[٤١]:

اخرجني المقدور من جلّق عن طيب جنات جنينات
فإن أعد يوما لها سالما فهو بنيّاتِ بُنياتِ

ولم تكن الضرائب والمصادرة وكثرة الحروب والمفسدين وحدها سبب الشقاء الذي ارهق عامة الناس في القرن الثامن وما قبله من السنين، بل إلى جانب ذلك المجاعات المتكررة، فقد كانت المدن تضيق بالناس سعتها لعسر العيش فيها، وربما كانت الحياة في مصر أحسن حالا في نظر المتنفذين من الاثرياء، فكيف بالفقراء من عامة الناس[٤٢]؟ ولعل ضيق العيش وعسر الحال يتضح من خلال ما يتهادى به الاحبة، فقد تكون الهدية قليلا من السكّر[٤٣]، أو الخبز أو شرائح اللحم، أو العسل، أو ديوكاً مخصية كتلك التي أرسلها الصاحب (تاج الدين)[٤٤] إلى سراج وراق هدية لتهنئته بأبيات جميلة حين عمر جامع دير الطين، وقد ردّ على الهدية قائلاً[٤٥]:

فديت الديوك بذبح عظيم وانقذتها من عذاب أليم
أعدت الشباب إلى مطبخي وقد كان شاب بحمل الهموم
تهادت قدوري زنجية فأعجب بزنجية عند رومي
وطال لسان لناري به خصمت خطوبا غدت من خصومي
وأمسيت ضيفك في منزلي ومن فيه ضيف لضيف الكريم

وقال الصفدي وقد اهدى له احدهم أكلة البسلا[٤٦]:

ظننت العبد عن مصر تسلّى فاهدى جودك الوافي بسلاّ
نعم قد أذكرتني عيش مصر واقبالا من الدنيا تولّى
طعام فوقه لحم شهي إلى كل النفوس فكيف يقلى
ودهن فوقه قد كان صبا تلظت ناره حتى تسلّى

وكان من أسباب بؤس الناس، الزلازل التي هدمت البيوت والمساكن وحطمت القلاع والحصون وازهقت النفوس والابدان[٤٧]. والاوبئة وانتشار الامراض وبخاصة الطاعون الذي بدأ عام (٧٤٩هـ)[٤٨]، واستمر يطوف حول العالم خمس عشرة سنة، لم ينج منه أحد فهو (أمر يدهش العقول، فقد دخل أول ما دخل من غزة إلى الشام ثم إلى بيروت ثم إلى صفد فما ترك بها أحدا الا اجتحفه سيله الجارف، بعد ذلك جلّق إلى جلّق وكان يقتل بالرائحة، فما دخل دارا إلاّ تحقق كل من فيها أن روحه رائحة، ثم ظهر بنوع آخر من الفناء فكان يقتل فيه بظهور حبه يعز نعتها على من وصف أو شبه)[٤٩].

والصفدي يرجع ما مرَّ بالناس من أحداث صعبة متلاحقة إلى سوء أعمالهم وغفلتهم وابتعادهم عن تقوى الله فجاءهم العقاب متعاقبا بقوله[٥٠]:

ايقضتنا يد الغلاء مرارا لنراعي التقى فلم نتنبّه
وغدا الظلم بالقناطير فينا فلهذا الطاعون صار بحبه

وقال[٥١]:

أما دمشق فإنها قد أوحشت من بعد ما شهد البريةُ أنسها
تاهت بعجب زائد حتى لقد ضربت بطاعون عظيم نفسها

وكان لفداحة الخطب يرتجي احدهم من (ناصر الدين) الطبيب المصري[٥٢]، تفسيرا لما يحدث أيام الطاعون في مصر قائلاً[٥٣]:

أظنُّ الناس بالآثام باءوا وكان جزاؤهم هذا الوباء
أسيد من له قانون علم بحلية برئه يرجى الشفاء
أآجالُ الورى متقاربات بهذا الفصل أم فسد الهواء
أم الافلاكُ أوجبت اتصالا به في الناس قد عاث الفناء
أم اقتربت على ما تقتضيه عقيدتنا فللزمن انتهاء
أفدْنا ما حقيقةُ ما نراه فما الاذهان احرفها سواء
وقُل ما صحَّ عندكَ من يقينٍ بحقٍ لا يعارضه رياء
ولا تُخلي الاحبةَ من دعاءٍ فمنكَ اليوم يلتمس الدعاء

وكان نتيجة لكل تلك الأوبئة والامراض الجسدية والبؤس والحرمان، والترف الزائد عند بعض الطبقات، ان تفشّت بينهم أمراض اجتماعية كثيرة، كشرب المسكرات وتدخين الحشيش وفعل الموبقات والتفنن في المنكرات حتى اضطر الملك المنصور (حسام الدين لاجين) الى إبطال المنكرات وأمر باراقة الخمر، وقد عرض ابن دانيال[٥٤] بمراسيم السلطان واستاء لأن مضيفه لم يقدم إليه الخمر بعدها قائلاً[٥٥]:

قد كسدت سوق المعاصي فلا شرب ولا قصف ولا عشره
فقلت: يا ابليس سافر بنا وطول الغيبة والسفره
اياك ان تسكن مصرا وان تقربها ان كنت ذا خبره
فإن فيها صاحباً عادلا مبارك الطلعة والغره
قد علم السلطان من نصحه لملكه ما شاع بالشهره
جزاء من خالف مرسومه تجريسةٌ والضرب بالدره

وكان قد اضطر الملك بيبرس سنة (٦٦٥هـ) في القاهرة حين عزم على القيام بإحدى غزواته الحربية ان ينظّم داخليته ويصدر مراسيم بابطال تدخين الحشيش وإبطال المنكرات ومنع الحانات بمصر والشام جميعا[٥٦]، وقد عرّض ابن دانيال بتحريف الحدود الشرعية عندما صار من أمر حادثة صلب أحد السكارى وفي عنقه جرة خمر بقوله[٥٧]:

لقد كان حدّ الخمرِ من قبلِ صلبه خفيفَ الأذى اذ كان في شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي الا تُبْ فإنّ الحدَّ قد جاوز الحدّا

وقال أيضا[٥٨]:

لقد منع الامام الخمر فينا وصير حدها حد اليماني

فما جسرت ملوك الجنِّ خوفا لأجل الحدِّ تدخلُ في القناني

وكان الشذوذ الجنسي والتردي الخلقي والتغزل بالغلمان بشكل فاضح[٥٩] شائعا تشي به كثير من أشعار الصفدي المنتشرة في مصنفاته، حتى دعا الأمر (تاج الدين بن الفخر)[٦٠]. عندما توجه الى مصر ورأى ما عليه الناس فيها إذ قال[٦١]:

شريعتنا قد انحلّت عراها فحي على البكاء لما عراها

والملفت أن من كان يقوم بتلك الأمور الفاحشة في ذلك العصر جماعة عرفوا بحسن السيرة وعلوِّ المنزلة[٦٢] بخلاف ما كان في العصر العباسي مثلا عند ابي نواس وغيره ممن عرفوا بالخلاعة والمجون، فقد اصبح هذا الشذوذ مألوفا، حتى كان الشعراء يعتقدون بتقصيرهم اذا لم ينظموا فيه وإن لم يمارسوه، وما مجون بعضهم في الحقيقة إلاّ مجاراة لادباء عصرهم والمشاهير منهم وبخاصة علماء الحديث والقضاء، فلا تخلو ترجماتهم من شعر لهم في المجون فهي ظاهرة فاشية في العصر، وكان صاحب المصنفات التي بين أيدينا واحدا منهم.

المبحث الثالث: صور المجتمع من الناحية الدينية

لم تترك العوامل السابقة آثارها السيئة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية العامة فحسب، وإنما القت بظلالها على النواحي الدينية أيضا بوصفها متعلقة ومتأثرة بها مباشرة، فقد كانت الغزوات والفتن والثورات الشعبية لها آثار كبيرة في هذا المضمار ومنها، ثورة العامة في الإسكندرية التي كانت بسبب مشاجرة بين مسلم وذمي فأحرق الثائرون باب الوالي فغضب السلطان وأمر بإعمال السيف في رقاب الناس وأخذ من التجار أموالا عظيمة وقتل كثيرا من الفقهاء والمدرسين والصالحين في قصة مفصلة يرويها لنا التاريخ[٦٣].

لقد كان لمثل تلك الفتن بين المسلمين والنصارى، وما خلفته الحروب الصليبية في نفوس العامة من المماليك والناس، انعكاس واضح في أدب تلك الحقبة التي يصور بعضها الصفدي خير تصوير بقوله: (كان من عمل ارغون شاه الأمير سيف الدين الناصري أن قدم إليه يوما وهو في سوق الخيل بدمشق نصراني من الزبداني رمى مسلما بسهم فمات فأمر بقتله وتفصيله على اعضائه، فقطعت يداه من كتفيه ورجلاه من فخذيه وحز رأسه وحملت أعضاؤه على أعواد وطيف به فارتعب الناس لذلك فقلت أنا[٦٤]:

لله يا ارغون شاه كم للمهابة حصَّل
وكم بسيف سطاه من ذي ضلال تنصَّل
ومجمل الرعب خلّى بعض النصارى مفصل

فالعداوة والشماتة بالنصارى تبدو واضحة في قول السراج الوراق مثلا لما عمَّر (الصاحب تاج الدين) جامع دير الطين[٦٥]:

بنيتم على تقوى من الله مسجدا وخير مباني العابدين مساجد
وأعلن داعيةُ الاذانِ فبادرتْ إجابتَه الصمُّ الجبال الجلامد
ونالت نواقيس الديارات وجمةٌ وخوفٌ فلم تمدد إليهن ساعد
فتبكي عليهنّ البطاريقُ في الدُّجى وهنّ لديهم ملقياتٌ كواسدُ
بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائبُ قومٍ عندَ قومٍ فوائد

ولعل ما تعرض له أهلُ الذمة أحيانا من تضييق عليهم بعد ماكانوا يتمتعون به من حرية دينية راجع إلى اظهارهم الفرح بتغلب التتار والفرنجة أيام الغزو الصليبي وما استدعاه هذاالغزو من حدة العاطفة الدينية وتحيز كل انسان الى دينه بطبيعة الحال، فقد أجبرهم السلطان قلاوون على ترك عملهم في الدواوين سنة (٦٨٩هـ)، وأمرهم بتصغير عمائمهم وتمييز ألبستهم نساء ورجالا، لاسباب مختلفة[٦٦].

وفي لبس اهل الذمة العمائم الملونة قال احد الشعراء ساخرا[٦٧]:

لا تعجبوا للنصارى واليهود معا والسامريين لما عمموا الخرقا
كأنما باتَ بالأصباغِ منسهلا نسرُ السماءِ فاضحى فوقهم ذرقا

والتاريخ يخبر عما اقترفه كثير من الذميين من الظلم والتسلط واحتكار الثروات الضخمة[٦٨]، ولم يدافع عنهم أو يوجد لهم مسوغاً من علماء المسلمين سوى ابن تيمية فقد دافع عن اليهود والنصارى أمام غازان التتري إذ أرسل رسالة الى (سر جواز) ملك قبرص في هذا الشأن[٦٩].

ولم يكن التمييز بالعمائم بين فئات الناس بالفعل الجديد على المجتمع عصر ذاك فقد كان قبلهم الايوبيون يميزون في الألبسة بين العلماء ورجال الصوفية، والاشراف من نسل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، اذ ميزوا هؤلاء بعمامة خضراء، مما أثار انتباه الرحالة عبد الله بن جبير الأندلسي حين زار المشرق فقال ناقدا[٧٠]:

جعلوا لأبناء الرسول علامةً إن العلامةَ شأن من لم يشهرِ
نور النبوة في كريم وجوههم يغني الشريف عن الطراز الأخضر

ويذكر أن المماليك كانوا من أنصار المذهب السني، الا ان تنافسا شديدا نشأ بين أصحاب المذاهب الأربعة من العلماء على النفوذ، وكانت المكانة للمذهب الشافعي، حتى ظهر هذا التنافس واضحا في شعر الشعراء[٧١]:

هويتُ شِيعِيَّ ومِن حظّي أنا سني لولا الذهب شافعي كان انتفى مني
ظهر وسر نحى وكنت أحسن به ظني صار مالكي أشعري قلت اعتزل عني

وقال آخر[٧٢]:

قد قلت إذ لجَّ في معاينتي وظنَّ أنّ الملالَ منْ قِبلي
خذّك ذا الاشعري حنفي وكان من أحمد المذاهب لي
حسنك ما زال شافعي ابدا يا مالكي كيف صرت معتزلي

وقد استفحل امر الصوفيين الكاذبين حين أدخلوا (الحشيشة) في حياتهم زيادة على الخمرة، واختلف العلماء في تحليلها وتحريمها، قال ابن الوحيد الزرعي يصفها[٧٣]:

وخضراء لا الحمراء تفعل فعلها لها وثبات في الحشى وثبات
تؤجج نارا في الحشا وهي جنة وتُبدي مرير الطعمِ وهي نبات

وظهر في فرقة من فرق الشيعة جماعة يطلق عليها اسم (الحشاشين) وفي مقابلهم ظهرت جماعة من مذهب السنة أطلقوا على انفسهم اسم النبوية[٧٤] . ويبدو ان ترفّض أو تشيّع بعض الأمراء وحكمهم لمدد وجيزة اعطى فسحة من الحرية لاتباع المذهب الشيعي من الحشيشية في التعبير عن فكرهم، فقد جاءَ على لسان شاعرهم الوداعي[٧٥]:

قل للذي بالرفض اتهـ مني اضل الله قصده
انا رافضي ألعن الـ شيخين والده وجده)[٧٦]

فقد سعى اكثر الملوك والامراء الى نشر المذهب السني وشد ازره بفتح مدارس كثيرة تدرس الحديث والتفسير على المذاهب الأربعة[٧٧]. وبعكسه وقفوا بكثير من العداء والازدراء بوجه فكر اهل البيت عليهم السلام، اذ كانت جذور ما يعانيه المذهب الشيعي من تكفير وتخريج عن ملة الإسلام شاخصة في

مصنفات الصفدي، مجسدة من خلال ألفاظه وقد ظهر ذلك واضحا في ترجمته (لمحمد بن ارغون)[٧٨] مثلاً:

(لعب بعقله الرو افض فرفضوه، واجابهم الى ذلك لما دعوه الى الضلالة، وفاوضوه، فياله من عمل صالح يرفعه الى اسفل... ولم يزل في غيه الذي لا يرد فيضه الى ان فارق الحياة بهيضة...، وكان مسلما فما زال به الامامية حتى رفّضوه، وغير شعار الخطبة، وأسقط منها ذكر الخلفاء سوى علي بن ابي طالب رضي الله عنه... وصمم اهل باب الانج عليه وخالفوه فما اعجبه ذلك وتنمر ورسم بإباحة دمائهم وأموالهم ففوجئ بعد يومين بهيضة مزعجة داواه فيها الرشيد بمسهل فخارت قواه وكان قبل موته قد رجع عن التشيع وقال بقول اهل السنة)[٧٩]. ولا يخفى ما بين أقواله من تناقض وتلفيق واضح يظهر صورة العداء لمن تشيَّع في ذلك الوقت، فهو تارة يقول (لم يزل في غيه الى ان فارق الحياة) وتارة أخرى وفي نفس القول (وكان قبل موته قد رجع عن التشيع)، وهذا ما قد يفسر قول كارل بروكلمان واصفاً الصفدي: (انه كان شافعيا ولا نراه كذلك فمعروف لما بينهم وبين الامامية الشيعة من تقارب في الأصول وهذا مالا نراه في الصفدي)[٨٠].

وقد تكررت مثل تلك القصص، فقد روى الصفدي عن احدهم في أيام ترفض اميرٍ آخر انه قال: (كان رفيقٌ معنا... يسب... ويبالغ... فقلت قبيح عليك ان تسب هؤلاء وقد شبت ما لك ولهم وقد درجوا من سبعمائة... فكان جوابه... قال ذلك في ملاء من الناس فقام شعر جسدي فرفعت يدي الى السماء وقلت... فورمت عيناه حتى كادت تخرج من وجهه، واسود وجهه وجسمه حتى بقي كالقبر وخرج من حلقه شيء يصرع الطيور فحمل الى بيته فما جاوز ثلاثة أيام حتى مات ولم يتمكن احد من غسله مما يجري من جسمه وعينيه ودفن)[٨١].

وكان لكثرة الفساد وعدم المبالاة بالدين ان كَثُرت السعايات المودية الى التكفير والتفسيق والقتل بابشع الصور[٨٢]، واسهم بعض اعلام العلماء آنذاك كابن قيم الجوزية في الخوض في أمور لا يصلح الحديث فيها[٨٣]. وزادت الفتاوى[٨٤] التي من شأنها بث الفرقة وتأجيج مشاعر الناس في آن واحد كفتوى زيارة القبور التي أطلقها ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) والتي أصدر السلطان بسببها مرسوما في مصر يقضي باعتقاله في القلعة في دمشق، بعد ان كان محبوه يرون فيه الامام المنتظر:

(لما أتينا تقيُّ الدين لاح لنا ... داعٍ الى الله فردٌ ما له وزر

على محياه من سيما الأولى صحبوا ... خير البرية نور دونه القمر

حبر تسربلَ منه دهره حبرا ... بحر تقاذف من أمواجه الدرر

قام ابن تيمية في نصرِ شرعتنا ... مقام سيّد تيمٍ اذ عصت مضر

فأظهر الحق إذ آثاره درست وأخمد الشرَّ اذ طارت له الشرر

كنا نحدِّث عن حبرٍ يجيء فها انت الامام الذي قد كان ينتظر)[٨٥]

وقد اثارت مسألة تحريم زيارة الأنبياء والأولياء الصالحين حفيظة الناس[٨٦]، ويذكر الصفدي في هذا الصدد انه (كان قد توجَّه يوماً شرف الدين البو صيري الى زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه فوجد الصاحب فخر الدين هناك فقال[٨٧]:

زرت الإمام الشافعيَّ ولم أكن لزيارتي أبداً له بالتارك

فوجدت مولانا الوزير يزوره فظفرت عند الشافعيِّ بمالك

وهذا يدلُّ على أنّ ابن تيميّة هو الذي أسّس لفكرة تحريم زيارة القبور، ولم يكن ذلك موجوداً من قبل، وتباينت من بعده مواقف المذاهب في الأخذ بها ورفضها حتى يومنا هذا، على الرغم من سيادة الرأي القائل بالتحريم، لأنَّ في تبنيها مصلحة سياسية وفرصة تفرض على المسلمين اطاعتها حباً في الظهور ورغبة في التسيد عليهم، وقد نتج على أثر ذلك تداعيات كان أبرزها تكفير المسلمين وإباحة دمائهم وإرهابهم بشتى صنوف القتل والتنكيل.

ومما تقدّم يتضح ان للعداوة والبغض بين الأديان والمذاهب الإسلامية جذوراً قديمة تتجلى صورتها في مصنفات الصفدي.

المبحث الرابع: صور المجتمع من الناحية الثقافية

ظلّت الحركة الثقافية في رقيها ونهوضها امتدادا للحركة الثقافية في العصور السابقة وذلك بسبب تنافس الملوك والامراء في نشر العلم ورعاية العلماء، ومشاركة بعضهم في فنون من القول والفكر... فبالرغم مما شاب الحركة الثقافية من تقليد في الأفكار والأساليب إلا أنها استمرت قوية ونشطة، فالأدب يبقى مرآة المجتمع وا لمعبّر عن قضاياه، ولابد من أن يعتريه من التغيير بقدر ما تصدَّع من بنيان الأمة في وقت غابت فيه السيادة العربية، وساد بين أهلها الخوف والجوع وما تبعه من تأخر، فقد أدرك الأدباء أنفسهم هذه الحقيقة مقارنين بين ما آلت إليه حالهم وما صار إليه وضع الغرب من تقدّم، قال الوداعي[٨٨]:

الغرب خير وعند ساكنه أمانةٌ أوجبت تقدّمه

فالشرق من نيِّريه عندهم يودِع دينارَه ودرهمه

لقد بذل أمراء المماليك جهودا طيبة في سبيل رقي العلوم والنهوض بها، وحرصوا على عقد المجالس العلمية والدينية أو توقيف دار (كمدرسة) على فقها ء المذاهب الأربعة أو تأسيس كتّاب للأطفال لتحفيظ الأيتام القرآن الكريم[٨٩]. وكانت وظيفة التدريس جليلة القدر فإذا أتمَّ الطالب دراسته أجاز له شيخه

وأصبح مؤهلا للفتيا والدرس، وكان يخصص لكل طالب في الشهر عشرة دراهم، وللمعيد عشرون ولكاتب الغيبة عشرون وللمدرس ثمانون[٩٠].

ويحدثنا الصفدي عن المرأة في أوضاع خاصة من مجتمع المماليك، بأنها كانت تتمتع بقدر من الحرية ولها دور في نظم الشعر والكتابة والقراءة، وربما كان العصر المملوكي أكثر عصور التاريخ الإسلامي اشتمالا على عدد كبير من المحدّثات والعالمات في الفقه، وقلّ وجود عالم من العلماء إلا وله إجازات من بعض العالمات أو قراءة على بعضهن[٩١].

وبرز هناك من اهتم بالآثار الدينية وشرائها، بمبالغ باهضة حفاظا عليها، فقد روى الصفدي أن (فخر الدين بن حنا)[٩٢] (اشترى الآثار النبوية على ما قيل بمبلغ ستين ألف درهم... وقد زرت هذه الآثار ورأيتها وهي قطعة من العنزة (ومرفرد)[٩٣] ومخصف وملقط وقطعة من القصعة وكحلت برؤيها، قال[٩٤]:

(اكرم بآثار النبي محمد من زارها استوفى السعود مزاره

يا عين دونك فالحظى وتمتعي ان لم تريه فهذه آثاره

والملفت للنظر حقا هو غزارة التأليف في هذا العصر لأن الأديب عادة ما كان يجمع بين الشعر والنثر ويتبارى في عدد التصانيف حتى تربو على العشرات والمئات، وكثرة الموسوعات الكبرى والدواوين وكتب التقاويم وعلوم اللغة والمعاجم[٩٥] وكتب التراجم التي تضم عشرات الأجزاء والمجلدات، ولعل كتب الصفدي ومصنفاته هي إحدى هذه المؤلفات الضخمة.

لقد كان يفهم من الأدب في عصر الصفدي (النثر الفني والشعر) وليس بالضرورة أن يختص بالنتاج الرفيع منهما، بل كلّ ما عبر به الشعراء عن أحداث العصر وحوادث المجتمع من قصائد ومقطّعات وأبيات كان ينظمها العلماء والمتأدبون تظرُّفاً وتسلية واظهارا للمعرفة والقدرة[٩٦] كولعهم بالألغاز التي انتشرت بكثرة في مصنفات الصفدي منها مثلا ما قاله الخطيب القناوي[٩٧] ملغزا في مغنٍّ بقوله[٩٨]:

ما اسم إذا عكسته يطرب ان سمعته

ينعم بالموصل متى صحفت ما عكسته

وقال ابن المهتار[٩٩] ملغزا في نمر[١٠٠]:

هات قل لي ما اسم شيء حيوان فيه شرٌّ

إن تصحفه فحلو لكن الثلثان مرٌّ

لقد سجل الصفدي إعجابه ببعض أدباء عصره مكبرا فيهم سعة علومهم وفنونهم إذ قال في زيد الدين الطائي[١٠١] متأسفا على فقده (لقد كنت أعجب من شأنه وحق لي العجب واتفكر في بيانه.... كان

اعجوبة الزمان ونادرة الوجود عدَّ له في شعر أسماء الولائم التسعة)[١٠٢]، وفي شعر له آخر عرض فيه أسماء عشرة لخيول الحلبة[١٠٣].

ومن جهة أخرى صور الصفدي حركة النقد النشطة الدائرة بين كبار أدباء وعلماء عصره كما في موضوع الفصاحة والبلاغة والصناعة والتكلف مثلا، ولعل كتابه (نصرة الثائر على المثل السائر) من ابرز الكتب في النقد التطبيقي في عصره والذي طغت فيه مقاييس البلاغة وأبوابها والتفنن فيها، وكتاب (اختراع الخراع في مخالفة النقل والطباع) الذي يعدّ من التراث الساخر فهو نمط جديد من السخرية الهزلية الضاحكة، جمع فيها بين النقد والهزلَ وسخر فيه من مدَّعي العلم بالعربية لغة ونحوا وعروضا وقافية، ومزج ذلك بالسخرية من المؤرخين والفلاسفةَ والأطباء ورجال السياسة، كقوله: (حدثني أبو الهزائم ثابت... وأخبرني مؤيد الدولة أبو خاذل...)[١٠٤]. وغيرها من الألقاب الفخمة الشائعة في عصره، ومنها مثلا ان يورد الخطأ المشاع في عصره ثم يصوبه بخطأ آخر كقوله في إعراب: (لو: حرفٌ تجر الاسم وتكسر الخبر... والصحيح أنها من الأفعال الناقصة التي لا عمل لها)[١٠٥] ويتناول فنا من فنون علم البديع وهو القول بالموجب الذي يقوم على المماحكة اللفظية والردود العفوية وجمال المفاجآت والاقناع والامتاع ويورد لذلك شواهد لشعراء كثُر، كقول أحدهم[١٠٦]:

غالطتني اذ كَست جسمي الضنى كسوة أعرت من اللّحم العظاما

ثم قالت: انت عندي في الهوى مثل عيني، صدقت لكن سقاما

(قَصَدتْ مثل عيني في العزة... ولكن حمَّلهُ محملا اخر بمعنى فتور عيني.... فأحسن هذا الأسلوب وأدخله في الاستدراك البديعيَ)[١٠٧] وغيرها من الأبيات التي تقوم على أسلوب الحكاية كقول الصفدي[١٠٨]:

قلت وقد عانقته عندي من الصبح قلق

قال وهل يحسدنا قلت: نعم قد انفلق

وعلى ما يبدو أنّ قرض الشعر كان في غالبه لا يعدُّ من الفن الرفيع وربما كان عملا لكسب الرزق كأي عمل من الأعمال ومنه قول (شمس الدين الشاعر)[١٠٩] لأبيات مدح (الملك الناصر) فرسم له براتب في كل يوم درهمين[١١٠]:

قد طال فكري في القريض الذي من نفعه لست على طائل

وقوله[١١١]:

اشكو اليك هوان شعر لم يقم لي رخصه بغلو سعر المشمش

قد اقبل الصيفَ وما في يدي من درهم للتوت والمشمش

وصارت بعض الأبيات لولا انتهاؤها (ببعض آية من القرآن لكان سمجا)[١١٢] كقول أحدهم[١١٣]:

قلت لما سكب السا قي على الأرض الشرابا

غيرة مني عليه ليتني كنت ترابا

لقد كان القرآن الكريم في عصر الصفدي المثل الفني الأعلى للأدباء بوصفه المصدر الأول لثقافتهم ثم تأتي مقامات الحريري بوصفها واحدة من الركائز الأساسية في ثقافة الأديب ونثر القاضي الفاضل[١١٤] كما أن ثقافة العصر العامة وما فيها من فنون وعلوم مشهورة كانت من مصادر فكره وينبوعه الثر.

الخاتمة

سلط البحث الضوء على نماذج من صور المجتمع في عصر الصفدي مثلت الحياة السياسية، وتسلُط المماليك فيها على مقاليد الحكم بالقوة التي تُمكن السلطان من فرض سلطانه على الجميع، – إذ كان قاتل السلطان القائم هو أحقُّ الأمراء في اعتلاء العرش بعده، مما شجع الأمراء على المغامرة والتآمر والتنافس في امتلاك أسباب القوة لهذا الغرض وذلك بشراء المماليك وتدريبهم، كما سلط الضوء على ما تركته الحروب الصليبية في نفوس الناس من عوامل الضغينة والحقد وما عانوه اجتماعيا من فقر واستعباد وتحمل للضرائب وعبث الساسة بهم، يساعده في ذلك سوء الاقدار من انتشار الأمراض والأوبئة والزلازل وما جرته تلك الحياة الصعبة من ثورات وفتن أدت إلى مناحرات طائفية اتخذت من السيف حسما لها تارة أو اكتفت بالحروب الكلامية كنار تحت الرماد تارة أخرى، ولم يبق الحديث محصورا في حدود السياسة والاجتماع والدين بل ضم صورا واضحة لحال الثقافة والأدب والنقد بوجهيها المشرق والخافت، فكانت مصنفات الصفدي هي المحور والمنهل الذي صدرت عنه النصوص والآراء، والنافذة التي يمكن أن يطل منها الباحثون على احوال العصر بنواحيه المختلفة.

الهوامش

١ ينظر: البدر الطالع: ٢٤٣/١. البداية والنهاية: ٣٠٣/١٤. الدرر الكامنة: ٨٧/٢. النجوم الزاهرة: ١٩/ ١١-٢١. طبقات الشافعية الكبرى: ١٠/ ٥-٣٢.

٢ البداية والنهاية: ٣٠٣/١٤.

٣ المماليك البحرية: نسبة إلى موقعهم على النيل، أو لأنهم كانوا يجلبون عن طريق البحر بصحبة تجار الرقيق. ينظر: العصر المماليكي: ٥. النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري بين الصفدي ومعاصريه: ٨٠.

٤ ينظر: اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع للهرة: ٣٠، النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري: ٨٩.

٥ هو حسام الدين لاجين المنصوري مملوك السلطان المنصور قلاوون من خيار الملوك في الإسلام (ت ٦٩٨هـ)، أعيان العصر وأعوان النصر: ٤/ ١٦٥، امراء دمشق: ١٦٦.

٦ المصدر نفسه: ٤/ ١٦٧. وقيل إنه قام على الأشرف لأنه تعرض لزوجته فعز ذلك عليه.

٧ امراء دمشق: ١٦٨.

٨ أبو الفتوح ناصر الدين محمد بن قلاوون (ت ٧٤١هـ) وهو أعظم سلاطين المماليك، أعيان العصر: ٧٢/٢.

٩ زين الدين كتبغا المنصوري السلطان العادل الذي هرب من بيسان عندما وثب حسام الدين لاجين عليه (ت٧٠٢هـ). ينظر: امراء دمشق: ٨٩.

١٠ المصدر نفسه: ١٦٦.

١١ سيف الدين طُعجي، قتل بعد أربعة أيام من تولّيه السلطة سنة (٦٩٨هـ)، ينظر الوافي بالوفيات: ٤٥٢/١٦.

١٢ امراء دمشق: ١٦٦.

١٣ ركن الدين بيبرس الجاشنكير، شاع عنه ترك المحرمات وله فضل طرد الصليبيين (ت ٧٠٩هـ)، ينظر الوافي بالوفيات: ٣٤٨/١٠.

١٤ امراء دمشق: ١٦٤.

١٥ ينظر عصر الانحدار: ٩٦، وكذلك: العصر المماليكي: ١٢٧.

١٦ أعيان العصر وأعوان النصر: ٤/ ٢٨٩.

١٧ م.ن: ١/ ٢٧٨.

١٨ م.ن: ٢٧٨/١، وينظر أمراء دمشق: ١٦٨.

١٩ النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري بين الصفدي ومعاصريه: ٨٩.

٢٠ ينظر: الوافي بالوفيات: ٩/ ٤٧٠١.

٢١ ينظر: اعيان العصر وأعوان النصر: ٤/ ١٨٦١، ١/ ٥٣٨ وما بعدها.

٢٢ ينظر: العصر المماليكي: ٢٨٥، ٣٠٤.

٢٣ محمد بن أحمد القاضي الرئيس بن القلانسي كاتب السر الشريف بدمشق، أعيان العصر وأعوان النصر: ١٥٦٦/٣.

٢٤ اعيان العصر وأعوان النصر: ٣/ ١٥٦٦.

٢٥ هو القاضي الرئيس ناظر الجيوش المنصورة بدمشق، ينظر: أعيان العصر: ٣/ ١٥٦٦.

٢٦ أعيان العصر: ٣/ ١٥٦٦.

٢٧ ينظر: الوافي بالوفيات: ٨/ ٩٠.

٢٨ ينظر: مطالعات في الشعر المملوكي: ٤٥.

٢٩ ينظر: اعيان العصر وأعوان النصر: ٣/ ٧٢٠.

٣٠ وهو محمد بن شريف الفاضل الكاتب صاحب الحفظ الفايق شرف الدين، متهم في دينه قيل انه وضع الخمر في دواته وكتب فيها المصحف، (ت ٧١١هـ)، أعيان العصر: ٤/ ١٦٧٣.

٣١ ينظر: اعيان العصر وأعوان النصر: ٤/ ١٦٧٣.

٣٢ ينظر: الوافي بالوفيات: ٨/ ٨٩.

٣٣ اعيان العصر وأعوان النصر: ٤/ ١٢٣١.

٣٤ امراء دمشق: ١٧٣.

٣٥ اعيان العصر وأعوان النصر: ١/ ٥١٠.

٣٦ المقارع جمع مقرعة وهي خشبة تضرب بها البغال والحمير. ينظر: لسان العرب (قرع): ٨/ ٢٦٤.

٣٧ الوافي بالوفيات: ١٠/ ١٩١.

٣٨ اعيان العصر وأعوان النصر: ١/ ٢٧٧.

٣٩ م.ن: ١/٢٧٧.

٤٠ ينظر: أعيان العصر وأعوان النصر: ١/ ٢٨٣.

٤١ م.ن: ١/ ٢٨٣.

٤٢ م.ن: ٣/ ١٠٤٨.

٤٣ م.ن: ٤/ ١٦٧٥.

٤٤ هو محمد بن محمد بن علي الصاحب تاج الدين، كان ذا تصون ورئاسة وسيادة وتفنن في المكارم، انتهت إليه رئاسة مصر في عصره، تفنن في مطعمه ومركوبه ومجلسه، (ت ٧٠٧هـ)، أعيان العصر: ٤/ ١٨٧٠.

٤٥ أعيان العصر وأعوان النصر: ٤/ ١٨٧٥.

٤٦ أعيان العصر وأعوان النصر: ١/ ٢٨٣ . ويبدو ان البسلا كانت أكلة مشهورة في مصر، أبرز مكوناتها اللحم والدهن الدالتان على ترف العيش كما يتضح من الأبيات.

٤٧ ينظر: الوافي بالوفيات: ٤/ ٣٦٤.

٤٨ أرخ الصفدي لهذا العام قائلا:

لما افترستَ صحابي يا عام تسع اربعينا

ما كنتَ والله تسعا بل كنتَ سبعاً يقينا

ألحان السواجع: ١/ ١١٣.

٤٩ م.ن: ١/ ١١٣.

٥٠ م.ن: ١/ ١١٣.

٥١ ألحان السواجع: ١/ ١١٨.

٥٢ كان من أطباء السلطان ناصر الدين وعندما مرض الأمير الطنبغا المراداني نائب حلب توجه لمداواته، فما لحقه الا وقد تمكن منه المرض، توفي الطبيب المصري في طاعون مصر سنة ٧٤٩هـ، ينظر: اعيان العصر وأعوان النصر: ٤/ ١٩١٤.

٥٣ م.ن: ٤/ ١٩١٤.

٥٤ هو محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعي الموصلي الحكيم صاحب النظم الحلو والقريض الذي لا يخلو من النكت، يأت بمضحكات تعجب منها الثكالى، وكان لا يبالي بما يقول من سخفه ولا يستحي في المجون اذا رفع مرخى سخفه، توفي (٧١٠هـ). اعيان العصر: ٤/ ١٦٤٧.

٥٥ م.ن: ٤/ ١٦٤٧.

٥٦ ينظر: تاريخ الأمة العربية (عصر الانحدار): ١٧٨.

٥٧ اعيان العصر: ٤/ ١٦٥١.

٥٨ م.ن: ٤/ ١٦٥١.

٥٩ امتنع الباحث عن إيراده لفضاحته.

٦٠ هو محمد بن سليمان بن أحمد بن تاج الدين بن الفخر، كان متعبدا ممتنعا من الغيبة كتب كثيرا من الحديث والفقه، (ت ٧٣١هـ). ينظر: أعيان العصر وأعوان النصر: ٤/ ١٦٦٩.

٦١ أعيان العصر وأعوان النصر: ٤/ ١٦٧٢.

٦٢ م.ن: ٤/ ١٦٦٩ وكذلك ٤/ ١٦٧٢.

٦٣ ينظر: تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٠٢.

٦٤ اعيان العصر وأعوان النصر: ١/ ٢٧٧. وينظر في حادثة مشابهة: ٣/ ٧٢٩.

٦٥ أعيان العصر وأعوان النصر: ٤/ ١٨٧٥.

٦٦ ينظر: نحو فهم جديد لأدب الدول المتتابعة: ١٠٤.

٦٧ اعيان العصر: ١/ ٢٦٥، لم أعثر على اسم القائل، وألبس النصارى الأزرق واليهود الأصفر والسامرة الأحمر.

٦٨ ينظر: تاريخ ابن الوردي: ٢٧٢.

٦٩ ينظر: نحو فهم جديد لادب الدولة المتتابعة: ١٠٦.

٧٠ شذرات الذهب: ٦/ ٢٢٦.

٧١ وهومن الشعر العامي المنسوب الى شيخ صدر الدين بن الوكيل. اعيان العصر وأعوان النصر: ٣/ ١٥٣٥ (شيعيَّ) و(ظهر وسر نحى) هكذا في الأصل.

٧٢ اعيان العصر وأعوان النصر: ٣/ ١٥٣٥.

٧٣ م.ن: ٤/ ١٦٧.

٧٤ (الحشاشون وهم اتباع الحسن بن الصباح في قلعة (ألموت) وما حولها وقامت بكثير من الاغتيالات ونجحت في اغتيال الوزير نظام الملك ولكنها لم تنجح في اغتيال صلاح الدين الأيوبي، أما (النبوية) فديدنهم الظفر بالحشاشين وقتلهم وقد نجحوا في اغتيال كثير منهم). ينظر: نحو فهم جديد لادب الدول المتتاعبة: ٩٩.

٧٥ هو علاء الدين الكندي البارع الكاتب الفاضل المقري المحدث المنشي، ينظر اعيان العصر وأعوان العصر: ٣/ ١٢٦٩.

٧٦ م.ن: ٣/ ١٢٧٣.

٧٧ ينظر: عصر الدول والامارات (الشام): ٤٢.

٧٨ هو محمد بن ارغون بن ابغا ملَكَ بعد أخيه (غازان المغلي) عرف باللين وميله للسلام. ينظر: اعيان العصر وأعوان النصر: ٣/ ١٥٧٢.

٧٩ م.ن: ٣/ ١٥٧٢.

٨٠ تاريخ الشعوب الاسلامية: ٦٥.

٨١ اعيان العصر وأعوان النصر: ٤/ ١٦٤١.

٨٢ م.ن: ٤/ ١٧٤٥.

٨٣ ينظر: الحروب الصليبية وأثرها في الأدب: ٥٠.

٨٤ اتهم ابن تيمية سنة (٦٩٨ هـ) بأنه يرى في ذات الله العلية رأي المجسمة أو المشبهة، وحملَته على أصحاب المنزع الفلسفي وسجن في الاسكندرية، ثم افتى بأن الحلف بالطلاق كالحلف بالله يكفّر عنه، ثم سجن للمرة الرابعة بسبب إفتائه ان الرحلة الى قبول الأنبياء والاولياء معصية من اشد المعاصي، وبقي في سجنه الى ان مات (٧٢٨هـ). ينظر عصر الدول والامارات (الشام): ٦٨-٦٩، وكذلك الوافي بالوفيات: ١٣/ ٧-١٦.

٨٥ اعيان العصر وأعوان النصر: ١/ ١٤٣، لم يذكر الصفدي اسم الشاعر.

٨٦ قال الصفدي: قرأته عليه بالقاهرة، وكتبت عليه نظما منه:

بقول ابن تيمية زخرف اتى في زيارة خير الانام

فجاءت نفوس الورى تشتكي الى خيرِ حبرٍ وازكى إمام

ينظر: ابن تيمية – حياته وعقائده: ١٨٤، الوافي بالوفيات: ٢١/ ٢٥٥-٢٥٦.

٨٧ أعيان العصر وأعوان النصر: ٣/ ١٤٣.

٨٨ أعيان العصر وأعوان النصر: ٣/ ١٢٦٩.

٨٩ م.ن.: ٤/ ٢١٨٩. وينظر: العصر المماليكي: ٣٤٢.

٩٠ وكان كاتب الغيبة يحضر بكرة وعصراً ويكتب اسم من تغيّب وينقص من راتبهِ ما يخص أيام الغياب. أعيان العصر وأعوان النصر: ١/ ٦٢٨.

٩١ ينظر: م.ن: ٤/ ٢١٣٣، ٣/ ١١١٨، ١/ ٧٠٦، ٨١٦.

٩٢ سبقت ترجمته. أعيان العصر: ٤/ ١٨٧٠.

٩٣ هكذا وردت في الكتابة.

٩٤ أعيان العصر: ٤/ ١٨٧٠.

٩٥ ينظر: تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي): ٣٩.

٩٦ ينظر النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري بين الصفدي ومعاصريه: ٢٤١.

٩٧ هو علم الدين الخطيب، أديب شافعي من الرؤساء الأعيان يحلّ الألغاز وينظم فيها أشياء كثيرة، ينظر أعيان العصر وأعوان النصر: ٤/ ٢١٨٥.

٩٨ م.ن: ٤/ ٢١٨٥.

٩٩ هو محمد بن علي الكاتب أمين الدين الصفدي عمل بواباً بالمدرسة الرواحية وكان خطّه حسناً (ت ٧٤٩هـ) ينظر: ألحالن السواجع: ٣/ ١٢٨.

١٠٠ م.ن: ٣/ ١١٢.

١٠١ هو زيد الدين الطائي الحلبي عثمان بن علي صاحب الفنون له تصانيف وشروح عظيمة، ينظر: أعيان العصر وأعوان النصر: ٢/ ١٠٧٢.

١٠٢ والولائم التسعة منها: وليمة العرس والختان والعقيقة و...، أعيان العصر: ٢/ ١٠٧٤، ١٠٧٥.

١٠٣ م.ن: ٢/ ١٠٧٥.

١٠٤ اختراع الخراع في مخالفة النقل والطباع: ٥٣.

١٠٥ م.ن: ٥٤.

١٠٦ الهول المعجب في القول بالموجب: ١٢٥.

١٠٧ الهوى المعجب في القول بالموجب، دراسة نقدية تحليلية – مجلة الجامعة الإسلامية: ٩٦٣.

١٠٨ لوعة الشاكي ودمعة الباكي: ٥٣.

١٠٩ هو محمد بن يوسف الشاعر الماهر الخياط الدمشقي الحنفي (ت ٧٥٦هـ) اعيان العصر: ٤/ ٢٠٢٦.

١١٠ أعيان العصر وأعوان النصر: ٤/ ٢٠٢٦.

١١١ م.ن: ٤/ ٢٠٢٦.

١١٢ نصرة الثائر على المثل السائر: ٣٠١.

١١٣ م.ن: ٣٠١.

١١٤ ينظر: الغيث المسجم: ١/ ١٢٤.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. إبن تيمية حياته وعقائده، صائب عبد الحميد، ط٢، الغدير للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان بيروت، ٢٠٠٢م.

٢. إتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين. د. محمد عبد المطلب، دار الاندلس، ط١، ١٩٨٤، بيروت.

٣. إختراع الخراع في مخالفة النقل والطباع، تأليف خليل بن أيبك أبو الصفا الصلاح الصفدي، من تراثنا الساخر – التراث العربي، د. فاروق اسليم، والكتاب قيد النشر.

٤. أعيان العصر واعوان النصر لصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي (٧٤٦هـ)، اعداد قسم الدراسات والبحوث في دار الفكر بدمشق، ط١، ١٩٩٨م، حققه مجموعة من المحققين وقدم له مازن عبد القادر المبارك، ونسخة أخرى محققة باشراف مكتب البحوث والدراسات دار الفكر، تحقيق فالح احمد البكور، ط١، ١٩٩٨م.

٥. ألحان السواجع بين البادئ والمراجع، تأليف الصفدي (٧٦٤هـ) تحقيق محمد عايش، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ٢٠٠٧م.

٦. أُمراء دمشق في الإسلام، تاريف الصفدي، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨٣م.

٧. تاريخ ابن الوردي، تاليف زين الدين عمر بن مظفر، (ت ٧٤٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٩٩٦م.

٨. تاريخ الادب العربي، العصر المملوكي، الدكتور عمر موسى باشا، دار الفكر بدمشق، ط٢، ٢٠٠٤م.

٩. تاريخ الامة العربية، عصر الانحدار تاليف محمد اسعد طلس دار الاندلس بيروت لبنان، ط١، ١٩٦٣م.

١٠. تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥م.

١١. الحروب الصليبية وآثارها في الادب العربي في مصر والشام، محمد سيد الكيلاني، دار الفرجاني، ١٩٨٤م.

١٢. شذرات الذهب في اخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، (ت١٠٨٩م) دار الآفاق العربية، بيروت د.ت.

١٣. تأريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات (الشام)، تاليف الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، ط٢، د.ت.

١٤. العصر المماليكي في مصر والشام، تأليف الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٧٦م.

١٥. لسان العرب لابن منظور الزبيدي، (ت٧١١هـ)، تحقيق عامر احمد حيدر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.

١٦. لوعة الشاكي ودمعة الباكي، العلامة الهمام المؤلف الشيخ صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، ط٣، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ١٣٠١هـ.

١٧. مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، د. بكري شيخ امين دار الآفاق الجديدة، بيروت ط٢، ١٩٧٩م.

١٨. النقد الادبي في القرن الثامن الهجري بين الصفدي ومعاصريه، تحقيق محمد علي سلطاني منشورات دار الحكمة، مطبعة الحجاز بدمشق، ١٩٧٤م.

١٩. نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتتابعة وتاريخه، منشورات جامعة تشرين، نعيم الحمصي، ١٩٨١م.

٢٠. نصرة الثائر على المثل السائر، الصفدي TOPDFwww.al-mostafa.com

٢١. الهول المعجب في القول بالموجب تأليف الصفدي، دراسة نقدية تحليلية. د. بسام عبد العفو القواسمي، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة فلسطين، (مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية م١٩، عدد١، يناير ٢٠١١م.

٢٢. الهول المعجب في القول بالموجب تأليف الصفدي، دراسة وتحقيق، محمد عبد المجيد لاشين، دار الآفاق العربية، ط١، ٢٠٠٥م.

٢٣. الوافي بالوفيات تاليف خليل بن ايبك الصفدي، تحقيق واعتناء احمد الارناؤوط – تركي مصطفى، دار الاحياء العربي، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٠م.

Summary

Photos from the community in the 7-8 century migration in months workbooks Safadi

In the wake of the apathy which is known by the subsequent centuries of the Mongol invasion of the islamic nation and the lost of cabinets flag because of the size of collapse and indulging in underdevelopment. The emergence of a layer of the book was them Safadi (T 764 AH) is a manifestation of the vigor and vitality of the nation. Valsafda a different classifications encyclopedic Banoanadtha, is a feature of the advancement of age at the time, and his works are a close fit for the lead role of the witness on the stage of the Arab-Islamic history. Therefore, the role of the works of this kind are able to explore the different dimensions of the past. From here the research came to reveal a part of it. Hence, with an introduction and then reboot took care of the translation of the author followed Investigation of Anwanat society's perception of the political, social, religious and cultural terms, and finally the finale showed the search results.

تاريخ أستلام البحث :- ٢٠١٥/٥/١٩

تاريخ قبول النشر :- ٢٠١٥/٦/٣٠